# محتويـــات العـــدد

جـــذور

جذور، العدد 32، شوال 1433هـ - سبتمبر 2012

* تأصيل وتعريف .....
* المرجعية التواصلية لمفهوم الكلام في التراث ....
* الدلالة بين النحو والمنطق .....
* الأفعال... وصراع الأسبقية .....
* وظائف اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي ...
* تلقي علماء اللغة لشعر أبي تمام .....
* مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغي...
* المناظرة التراثية .....
* أفق التوقع في عمود الشعر لأبي علي المرزوقي ...
* تلقي النص الشعري القديم لدى محمد مندور ....
* سيميائية الجسد في الشعر العربي القديم ...
* الذاتية في بعض أجناس النثر العربي القديم ...

العنـــوان

النادي الأدبي الثقافي بجدة
الإدارة: حي الشاطئ
جدة ص.ب (5919)
فاكسميلي: 6066695
هاتف: 122-6066-6066364

JUDHUR

Literary & Culturla
Club Jeddah
P.O. Box: 5919
Jeddah 21432
FAX : 6066695
Tel : 6066122 - 6066364
www. adabijeddah.com

# المشـــــاركـون

## الإشـــــراف

**أ. د. عبدالله عويقل السلمي**

* * *

## رئيس التحرير

**د. عبدالرحمن رجاء الله السلمي**

* * *

## مدير التحرير

*** د. صالح عياد الحجوري**


..... 4

رشيد يحياوي ..... 9

صابر الحباشة ..... 27

علوي أحمد الملجمي ..... 47

محمد عبدالرحمن عطا الله ..... 65

المختار السعيدي ..... 95

محمود توفيق محمد سعد ..... 121

العياشي إدراوي ..... 173

ابن عيني عبدالله ..... 221

عبدالعزيز خلوفة ..... 231

ماجد الجعافرة ..... 265

نور الدين بنخود ..... 291



رقم الأيداع 19/2536

# وظائف اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي

محمد عبدالرحمن عطا الله(*)

إن الحديث عن اللغة غير المنطوقة لم يكن وليد العصر الحديث، بل هو ضارب بأطنابه في تراثنا العربي، ويعد الجاحظ من أشهر الذين أدلوا بدلوهم في هذا المضمار، يقول : «جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لاتنقص ولا تزيد أولها: اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط ، ثم الحال التي تُسمى نِصبة»[1].

إذاً نتبين من عبارة الجاحظ السابقة «لفظ وغير لفظ» أن هناك لغة منطوقة تقابلها لغة غير منطوقة، ومن ثم نشأت بعض الثنائيات «تتمثل في مصطلح اللغة المرئية في مقابل اللغة المسموعة، ولغة الإشارة في مقابل لغة الكلام، وهناك مصطلحات أخرى تصف اللغة المنطوقة بأنها لغة لفظية، وهناك اللغة غير المنطوقة أو غير اللفظية»[2].

وفي العصور القديمة من تاريخ البشرية كانت الإشارات لها الأهمية الأولى ، وللكلام المنزلة الثانية في تبادل الفكر[3]. وقد جاءت «الأصوات أولا معاونة للإشارات والحركات، ثم أخذت تكتسب بالتدريج معنى متعارفا عليه، بحيث أصبح لها السيادة والسيطرة والغلبة، أو على الأقل أصبحت جزءا مهمًا منها»[4].

(*) أكاديمي بجامعة الطائف.

إن وراء اللغة المنطوقة أنساقاً غير لفظية تؤطرها، وقد تصبح في بعض الأحيان أنساقاً متميزة ومستقلة عن الأنساق المنطوقة[5]، وتظهر استقلالية اللغة غير المنطوقة أكثر فيما يُسمى بالرمز «ونرى أوضح مثال يمكن أن ينطبق على وصف... الرمز هو «الميزان» الذي يرمز عادة إلى العدل ، وتكون الرابطة التي ترمز بين الرمز كمفسرة والعدل كموضوعة، هي مبدأ التساوي أو المساواة، حيث تشير إلى ذلك كفتا الميزان المتساويتان بوصفهما «الركيزة» التي توضح الوجهة والصفة الرابطة بين كل من العلامة والموضوعة»[6].

ومهما يكن من أمر فلا يمكن أن ننحي اللغة غير المنطوقة عن تحديد المعنى، فقد رأى بلومفيلد أنه «حين الاستعانة ببعض العلوم الأخرى، يمكن الاقتراب من تحديد المعنى، أو التوصل إليه، ومن بين تلك العلوم علم الحركة الجسمية»[7].

ومن هنا يتبين أن الأنساق اللفظية وغير اللفظية تقوم بإنتاج المعنى، وتوفير التواصل، وهذا ما دفع بارط إلى أن يسند وظيفة التواصل إلى الأنساق اللسانية وإلى الأشياء[8].

والمجتمع في حاجة إلى الأنساق اللفظية وغير اللفظية ففي «أحضان المجتمع تكونت اللغة. وُجدت اللغة يوم أحس الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم. وتنشأ من احتكاك بعض الأشخاص الذين يملكون أعضاء الحواس ويستعملون في علاقاتهم الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرفهم: الإشارة إذا أعوزتهم الكلمة، والنظرة إذا لم تكفِ الإشارة»[9].

ومع ذلك فالدراسات التي تناولت اللغة غير المنطوقة تُعد قليلة، فقد رأى إسلن «أن الدراسات السيميولوجية المبكرة لم تهتم إلا بالنص

الحواري في الدراما باعتباره النص الرئيس المنتج للمعنى، في حين يؤكد على أهمية دراسة النصوص غير الكلامية دراسة لا تقل أهمية عن دراسة النص الحواري»[10].

ويبقى سؤال يطرح نفسه. هل اللغة غير المنطوقة تقوم بوظيفة التواصل فقط ؟ أو تؤدي بجانب هذا الدور وظيفة جمالية ؟ ويجيب عن هذا السؤال د. كريم حسام الدين في مقدمة كتابه الإشارات الجسمية بقوله: «أرجو أن تكون هذه الدراسة مفيدة للدارسين الذين يهتمون بدراسة السلوك غير اللغوي ودوره في التواصل أو التفاعل الاجتماعي من ناحية ، ودوره في التعبير الجمالي والفني من ناحية أخرى»[11]. وقد اتضحت الوظيفتان: التواصلية والجمالية من خلال دراسته التطبيقية على ثلاثية نجيب محفوظ.

ومن كل ما سبق فقد اتضح لنا أن ما يمكن تسميته باللغة غير المنطوقة جزء من طرق التواصل، ومن ثم فخير «وسيلة للنظر في حركة النص الأدبي وسبل تحرره، هي الانطلاق من مصدره اللغوي»[12].

وللدور المزدوج للسلوك غير اللفظي الذي يجمع بين التواصل والتفاعل الاجتماعي والتعبير الجمالي والفني، وإيماناً منا بأهمية اتخاذ المنهج اللغوي أو اللساني مفتاحاً للنقد. تم اختيار وظائف اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي موضوعا للبحث وباعتباره أبلغ نص بعد القرآن الكريم .

وعند دراسة وظائف الأنساق غير اللغوية في الحديث النبوي نرى أغلب هذه الوظائف يرجعها المهتمون بدارسة اللغة غير المنطوقة إلى حركات اليد، ويقسمونها أربعة أقسام هي: الوظيفة المستقلة، والوظيفة التوضيحية أو التو كيدية، والوظيفة التصويرية أو الوصفية، والوظيفة التنظيمية[13].

ويمكن عرض هذه الوظائف على النحو الآتي:

**أ - الوظيفة المستقلة:**

تتحقق هذه الوظيفة «حين تؤدي معنى كاملا يمكن أن يعبر عنه بمقابل لفظي، وهي حينئذ تأخذ شكل الشعار، أو الاصطلاح المتفق عليه بين شعوب العالم، أو بين أبناء ثقافة معينة، أو بين مجموعة متجانسة»[14].

ويندرج الميزان الذي يرمز إلى العدل - الذي أشرنا إليه في مقدمة هذا البحث - تحت هذه الوظيفة، وكذلك إشارات المرور.. إلخ.

وهناك رموز إشارية ذات استقلالية وظيفية متفق عليها بين أبناء الديانة الواحدة، وتتحول هذه الإشارات إلى شعار ديني يتوارثه مَن يدينون بهذا الدين أو ذاك.

ومن هذا النوع المتفق عليه بين المسلمين، الإشارة بإصبع السبابة في التشهد أو الدعاء. وهذا - بلا شك - ما فعله الرسول صلى عليه وسلم وتبعه المسلمون جيلا بعد جيل.

ونعاين ذلك في وصف الزبير، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس في الثنيتين، أو في الأربع يضع يديه على ركبتيه، ثم أشار بإصبعه»[15].

إن هذه الإشارة أدت معنى مستقلا و استغنى بها عن اللفظ ، وأضحت رمزا يُعبر به عن التوحيد ، وارتباط العبد بخالقه في حالة من حالات الصلة بين البشرية والربانية، والإشارة بإصبع واحد إفراد لله بالوحدانية، وهذا ما يفسره حديث سعد بن أبي وقاص، قال: «مر النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أدعو فقال : أحد أحد وأشار بالسبابة»[16].

وهناك إشارة أخرى يمكن الوقوف عندها في هذا الصدد وردت في

حديث ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالبيت على راحلته ، فإذا انتهى إلى الركن أشار إليه»[17].

الإشارة إلى الركن في أثناء الطواف من الإشارات التي أخذت شكل الرمز أو الاصطلاح بين الجماعة المسلمة ، ومن ثم قامت مقام اللفظ في تعظيم هذا الركن وإجلاله دون التفكير في المغزى من وراء هذه الإشارة ، فالأمر أمر طاعة وإذعان.

**ب - الوظيفة التوضيحية أو التأكيدية:**

تتحقق هذه الوظيفة غالبا «حين تأتي حركات اليد مصاحبة للكلام بقصد إيضاحه أو تأكيده»[18]. ويجدر بنا أن نسوق بعض الأحاديث - مع كثرتها - لتوضيح هذه الفكرة.

وأول ما نقف عليه حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس فيما خمسة أوسق[19] صدقة، ولا فيما خمسة ذود[20] صدقة، ولا فيما خمس أواق صدقة.

وقال عمارة (أحد رواة الحديث) سمعت أبا سعيد الخدري يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشار صلى الله عليه وسلم بخمس أصابعه»[21].

إن الإشارة هنا بأصابع الكف جاءت مصاحبة للفظ خمسة الذي ورد في النص ثلاث مرات وهذه المصاحبة أدت وظيفة توضيحية تأكيدية بقصد الإفهام والتواصل بين المتكلم والمتلقي.

وهذه الإشارة - أيضاً – أدت الدور الذي يقوم به التكرار اللفظي، فشكّل النسق اللفظي وغير اللفظي طرفيْ التكرار، ليؤدي هذا التكرار وظيفته من تأكيد وإفهام على حد قول ابن قتيبة[22]: «فقد أعلمتك أن

القرآن نزل بلسان القوم وعلى مذاهبهم ، ومن مذاهبهم : التكرار إرادة التوكيد والإفهام».

ونسوق نصاً آخر نتبين من خلاله الوظيفة التأكيدية التوضيحية. «ذهب عبدالله بن نافع ومعه رجل من بني ليث حتى دخل على أبي سعيد الخدري، فقال: إن هذا الرجل أخبرني أنك تخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الورق بالورق إلا مثلاً بمثل، وعن بيع الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل، فأشار أبي سعيد بإصبعيه إلى عينيه وأذنيه ، فقال أبصرت عيناي، وسمعت أذناي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل، ولا تشفعوا بعضا على بعض، ولا تبيعوا شيئا منه بناجز إلا يدا بيد»[23].

جاءت الإشارة هنا إلى العينين مصاحبة البصر، وإلى الأذنين مصاحبة السمع على طريقة مراعاة النظير، وهذه البنية كسابقتها تُعد بنية تكرارية بين طرفين: طرف مجرد يمثله النسق اللفظي وطرف حسي مادي يمثله النسق غير اللفظي، ولعل هذا يكون أكثر نفاذا إلى ذهن المتلقي.

وأضحت الوظيفة التأكيدية الناتجة عن هذه المصاحبة لها أهميتها في هذا المقام، فقد تسرب الشك إلى رواية الرجل الليثي، فاحتاج المقام إلى تأكيد لإزالة هذا الشك، فاستخدم أبو سعيد الخدري رضي الله عنه الإشارة إلى العينين والأذنين مصاحبتين عبارتيْ: أبصرت عيناي، وسمعت أذناي، حتى يزيل الشك من نفس عبدالله بن نافع مؤكدا له سماعه الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتتجلى الوظيفة التوضيحية أو التأكيدية - أيضاً - في حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس أحد منكم ينجيه عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله

منه بمغفرة ورحمة، وقال ابن عون (أحد رواة الحديث) بيده هكذا، وأشار على رأسه، ولا أنا حتى يتغمدني الله منه بمغفرة ورحمة»[24].

إن إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم على رأسه وردت مصاحبة لفظ أنا، إنها تأكيد على الذات، وتوضيح لبشرية النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا يستثني نفسه من حاجة البشر جميعاً إلى رحمة الله ومغفرته. وهذه الإشارة - أيضاً - توكيد على دلالة كلمة أنا، وإبراز لمضمونها الانفعالي، علاوة على دورها التوضيحي، المتمثل في الطرفين الحسيين أنا والإشارة على الرأس ، ومن ثم أدت تلك الإشارة دوراً تأكيدياً وتوضيحياً في آن واحد.

### ج - الوظيفة التصويرية أو الوصفية:

هذه الوظيفة «تقوم فيها حركات اليد بتصوير الشيء في الهواء، أو تتخذ شكل الشيء الذي يتحدث عنه المتكلم، كالحجم أو الطول، وذلك عن طريق وضع المتكلم يديه متباعدتين، يمينا أو شمالا بقدر الحجم المراد تحديده. ومن أمثلة الوظيفة التصويرية كذلك استخدام السبابة ، وإدارتها في الهواء عدة مرات لتصوير الشكل الحلزوني»[25].

وتتجلى هذه الوظيفة في بعض الأحاديث النبوية، ويمكن أن نذكر منها حديث سفيان عن أبي بن كعب في ذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام «... فلما خرج من البحر مروا بغلام مع الصبيان فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده هكذا، وأومأ سفيان بأطراف أصابعه كأنه يقصف شيئاً، فقال له موسى ﴿ **أَقَتَلْتَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا**

**يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ** ﴾[26] مائلاً أومأ بيده هكذا، وأشار كأنه يمسح شيئا إلى فوق، فلم أسمع سفيان يذكر مائلا إلا مرة»[27].

في هذا الحديث جاء النسق غير اللفظي مرتبطا بلفظين مجردين هما: الفعل «قلع»، واسم الفاعل «مائل»، واللفظان المجردان تعبير عن حركتي القلع والميل ، فأضفى المتلقي/ الراوي حيوية على النص من خلال تصوير فعلىّ القلع والميل ؛ فمن خلال المراوحة بين المجرد اللفظي والمحسوس غير اللفظي، لم تقف الصورة ثابتة جامدة، بل أضحت نامية متحركة في مناوشة مستمرة لذهن المتلقي من خلال حركتها بين المجرد والمحسوس، ومن خلال حركتها – أيضا – بين المحسوس والمحسوس نفسه مرورا بالإيماء بأطراف الأصابع، ثم القصف ، وأخيرا ميل الجدار الذي يريد أن ينقض.

إن هذا التصوير الإشاري في هذا النص مناسب ومتساوق مع الأنساق اللفظية التي تقاوم الثبات، وتعبر عن الحركة، وتحاكي أفعال الأشخاص الذين يحركون أحداث هذه القصة – التي اخترنا منها بعض السطور – مركزين على الشاهد غير اللغوي ومصاحبته لصنوه اللغوي.

ونلمح الوظيفة التصويرية في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسمع من النبي صلى الله عليه وسلم الحديث، فيعجبه، ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إني أسمع منك الحديث، فيعجبني، ولا أحفظه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استعن بيمينك، وأومأ إلى الخط»[28].

في هذا الحديث وردت إشارة النبي صلى الله عليه وسلم مصورة حركة اليد وهي تكتب، وكانت هذه الإشارة لها أثرها في النفاذ إلى ذهن

المتلقي، وكذلك لها قيمتها في تخصيص العام، فلو وقف النص عند «استعن بيمينك» لوقع المتلقي في حيرة، فاليد اليمنى يستخدمها الإنسان في أفعال متعددة ومتنوعة، والكتابة جزء من أفعال اليد، ومن ثم أدت الإشارة دورا فاعلا في دفع توهم قد يقع فيه المتلقي.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وقع المتلقي بين فعلىّ الإعجاب وعدم الحفظ، أي أنه متردد بين الإثبات والنفي. الإعجاب يولد لديه حالة من النشوة والفرح، وعدم الحفظ يولد عنده حالة من الحزن والقلق، فجاءت الإشارة إلى الخط طامسة النفي (لا أحفظ)، منسحبة نحو الإثبات «فيعجبه». وهذه الإشارة – أيضاً – لها أهميتها من الناحية النفسية، فقد أزالت حالة الحزن والقلق التي كانت تعتري المتلقي ، فما يفر من ذاكرته يجده مكتوبا بين يديه.

**د – الوظيفة التنظيمية:**

وهذه الوظيفة «تقوم بضبط التفاعل البيني، وتتحكم في إجراءاته، فهي تحدد متى يسكت شخص، ومتى يبدأ آخر الكلام، وقد تدل حركة يدوية معينة للمتكلم على معنى «انتظر» أو «تمهل» أو «دعني أتكلم» أو «لا تقاطعني» بتحريك اليد عدة مرات بطريقة معينة ، أو تدل على معنى «الدعوة إلى الصمت»: عن طريق وضع اليد على الفم»[29].

وتتضح هذه الوظيفة التنظيمية من خلال الحديثين الآتيين:

الحديث الأول: عن جابر «أن النبي صلى الله عليه وسلم أفاض من عرفة، وجعل يقول: السكينة عباد الله، يقول بيده : هكذا، وأشار أيوب (أحد رواة الحديث) بباطن كفه إلى السماء»[30].

الحديث الثاني: «ما رواه معاذ عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «خطب النبي صلى الله عليه وسلم الناس بمنى،

ونزَّلهم منازلهم، فقال لينزل المهاجرون ههنا، وأشار إلى ميمنة القبلة، والأنصار ههنا وأشار إلى ميسرة القبلة، ثم لينزلن الناس حولهم»[31].

وردت الإشارة في كلا الحديثين في أثناء أداء مناسك للحج؛ لتنظيم الحجاج من الصحابة، وهم - بلا شك - كثيرون ؛ ولذا، فالإشارة مناسبة في هذا المقام.

وجاءت الإشارة في الحديث الأول مصاحبة النسق اللفظي» السكينة»، مؤكدة إقرار النظام، نافية أية حالة من حالات الفوضى، ووردت الإشارة في الحديث الثاني مستقلة، ولاعبة دوراً رئيساً في تنظيم منازل القوم.

والإشارة في كلا الموقفين مثلت نوعاً من الحضور، لكن هذا الحضور يخفي وراءه غياباً، فهناك وجه غائب وراء هذه الإشارة، والغياب في هذا النص يفضي إلى دلالة الإذعان والخضوع والطاعة والحب جميعاً.

إن الإشارة صادرة من القائد/ النبي صلى الله عليه وسلم، إنها مثير قوي، قابله الحجاج/ الصحابة باستجابة فورية. وسرعة الاستجابة تعبير عن طاعة وحب بين المرسل والمستقبل، فالمرسل/ النبي صلى الله عليه وسلم بشر يُوحى إليه، ومن ثم كان حبه يفوق حب كل امرئ نفسه ؛ ولذا آتت الإشارة أكلها من الناحيتين: النفعية/ التنظيمية، والتأثيرية/ الجمالية في التعبير عن الطاعة والانقياد والحب.

هذه هي الوظائف التي حددها المعنيون بدراسة الأنساق غير اللفظية . ويمكن أن نضيف إلى الوظائف السابقة وظيفتين أخريين، هما: الوظيفة التعليمية والوظيفة الجمالية. ولنبدأ بـ :

**د - الوظيفة التعليمية:**

الأنساق غير المنطوقة تؤدي وظيفة عظمى في عملية التواصل بين

المبدع والمتلقي، لاعتماد تلك الأنساق على الوسائل الحسية من إشارة وحركة وغير ذلك، مما يجعلها أكثر نفاذا إلى ذهن المتلقي.

ويمكن الوقوف على بعض الأحاديث؛ لنتبين من خلالها تلك الوظيفة.

قال سعد بن عبيدة: «سمع ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يقول: الليلة النصف. قال: وما يدريك أن الليلة النصف؟ سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول: الشهر هكذا وهكذا، وأشار بأصابعه العشر مرتين، وهكذا في الثالثة، وأشار بأصابعه كلها وحبس أو خنس إبهامه»[32].

اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليم الصحابة عدد أيام الشهر الهجري على النسق غير اللغوي، فقد تبين من خلال العلامة الإشارية أن الشهر ثلاثون يوماً، أو تسعة وعشرون يوماً.

وكان للمتلقي دور رئيس في إنتاج هذا النسق، فعدد مَن يقرأ ويكتب في هذه الأمة كان قليلاً، وقصة افتداء أسرى الكفار في غزوة بدر بتعليم المسلمين القراءة والكتابة مشهورة[33]. وفي مثل هذه الحالة يكون المحسوس المادي/ غير اللفظي أنجع تأثيراً في المتلقي من المجرد اللفظي.

ونسوق في هذا الصدد حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما «أنه رأى رجلا يحرك الحصى بيده، وهو في الصلاة، فلما انصرف قال له عبدالله لا تحرك الحصى وأنت في الصلاة، فإن ذلك من الشيطان، ولكن اصنع كما كان رسول صلى الله عليه وسلم يصنع، قال: وكيف كان يصنع ؟ قال: فوضع يده اليمنى على فخذه، وأشار بإصبعه التي تلي الإبهام في القبلة، ورمى ببصره إليها أو نحوها، ثم قال: رأيت هكذا رسول صلى الله عليه وسلم يصنع»[34].

جاء النسق غير اللفظي هنا لتحقيق وظيفة تعليمية، من خلالها تم التواصل بين المرسل والمتلقي، فأضحت وظيفة النسق غير اللغوي تصحيح الخطأ، والخطأ - أيضاً - ورد في نسق غير لغوي مثله (تحريك الحصى)، والمقام مقام الصلاة، فكان حتماً أن يختفي النسق اللغوي تماماً، ويحل محله نسق معاكس له.

ولما كانت الوسائل الحسية أكثر نفاذاً إلى ذهن المتلقي، ونافعة في التواصل بين المرسل والمستقبل، اعتمد عليها المرسل/ ابن عمر رضي الله عنهما، فجاء نسقه غير اللغوي محاكياً صنيع الرسول صلى الله عليه وسلم في الصلاة، ومن هنا حققت الإشارة وظيفتها النفعية، وهذا ما أراده المرسل.

لكن النسق غير اللفظي يحمل في طياته وظيفة تأثيرية، إنه يشير إلى السكينة والوقار في الصلاة ، والإقرار لله بالتفرد والوحدانية، ومن ثم يكون قلب المرء موصولا بربه.

ويتجلى الهدف التعليمي من خلال الحديث التالي:

«جاء رجل إلى عمر بن الخطاب، فقال: إني اجتنبت فلم أصب الماء، فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب: أما تذكر أنا كنا في سفر أنا وأنت، فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعكت[35] فصليت، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: النبي صلى الله عليه وسلم إنما يكفيك هكذا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه»[36].

هنا نرى النبي صلى الله عليه وسلم يعلم عمار بن ياسر حكماً شرعياً، يعلمه التيمم، وكان الصحابة حديثي عهد بالإسلام، والأحكام الشرعية لم تكن معروفة - بلا شك - لدى العرب من قبل، ومن ثم

خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم خالي الذهن، فكانت الوسيلة الحسية المعتمدة على نسقها غير اللفظي هي الأجدى، إنها وسيلة تراعي حالة المتلقي، فالمتلقي حاضر في النص، وإن كان قابلا، فهو في الوقت نفسه عنصر فاعل فيه، إنه هو الذي حدد النسق التعبيري.

إن المعلم يعلم الحكم، لكن المتلقي يجهله، فجاء النسق الذي يناسبه في صورة حية نامية متطورة ممتدة عبر أفعال (الضرب - النفخ - المسح) متآزر معها الدالان الحسيان: الوجه والكفان.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ونكتفي بتلك الشواهد علها تكون قد أوضحت الفكرة.

**ز - الوظيفة الجمالية:**

من المعروف أن اللغة تحمل شفرتين: شفرة توصيلية، وأخرى جمالية، وتكمن الشفرة التوصيلية في لغة الحياة اليومية، أما اللغة الأدبية فتحمل الشفرتين معاً[37].

والحديث النبوي أكمل النصوص فصاحة وبلاغة وبيانا ، وما مر بنا من أحاديث تظهر فيها الشفرة الجمالية واضحة ، ويمكن أن نسوق مجموعة أخرى من النصوص نتبين من خلالها الوظيفة الجمالية.

ونقف أولاً على الإشارة التي تحمل معنى الأمر في حديث أنس، قال: «لم يخرج النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً فأقيمت الصلاة، فذهب أبو بكر يتقدم، فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم بالحجاب فرفعه، فلما وضح النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنظرنا منظرا كان أعجب إلينا من وجه النبي صلى الله عليه وسلم حين وضح لنا ، فأومأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر أن يتقدم، وأرخي النبي صلى الله عليه وسلم الحجاب فلم يقدر عليه حتى مات»[38].

وهذه الإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر تحمل دلالة فعل الأمر «تقدم» والأمر «من أنواع الإنشاء، والأظهر أن صيغته... موضوعة لطلب الفعل استعلاء، لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك، وتوقف ما سواها على القرينة... ثم إنها أعني صيغة الأمر، قد تستعمل في غير طلب الفعل استعلاء بحسب مناسبة المقام»[39].

ويشترط البلاغيون دخول صيغة الأمر إلى لغة الأدبية مفارقتها حالة الاستعلاء ، وتحولها إلى سياقات أخرى يقتضيها المقام وقرائن الأحوال.

ولعل الإشارة التي تحمل بنية الأمر في الحديث السابق، فارقت حالة الاستعلاء ، وأسهمت حالة من حالات الضعف في إفراز البنية الأمرية، فالنبي صلى الله عليه وسلم يوشك أن يلحق بربه، فهو في حالة مرض وضعف شديدين، ومن ثم لم يقدر علي أمر أبي بكر لفظاً، فأمره إشارة، فكان النسق غير اللفظي أبلغ ومناسباً للمقام.

وتحمل الإشارة - أيضاً - معنى الأمر في حديث جابر بن عبدالله ، قال: « كنت جالسا في داري فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إليَّ فقمت إليه، فأخذ بيدي فانطلقنا حتى أتى حُجَر نسائه، فدخل ثم أذن لي، فدخلت الحجاب عليها، فقال: هل من غذاء؟ فقالوا: نعم. فأتى بثلاثة أقرصة، فوضعن بين يديه فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرصا فوضعه بين يديه، وأخذ قرصا فوضعه بين يديَّ، ثم أخذ الثالث فكسره باثنين، فجعل نصفه بين يديه، ونصفه بين يديَّ ، ثم قال هل من آدم ، قالوا: لا إلا شيء من خل. قال: هاتوه، فنعم الأدم هو»[40].

إن الإشارة في الحديث السابق سدت مسد فعل الأمر (تعال) «ويلاحظ أن إنتاج بنية الأمر تحتاج إلى حضور طرفي الاتصال بكل مكوناتهما الداخلية والخارجية، ذلك أن علو أحد الطرفين قد يكون ادعاء لا حقيقة »[41].

إن الإنتاج الصياغي في هذا النص النبوي يحطم علو أحد الطرفين على الآخر، ويتحول الموقف إلى حالة من حالات الحب بين النبي صلى الله عليه وسلم وأحد صحابته، وتآزر النسق غير اللفظي مع النسق اللفظي في خلق صورة نامية شكلتها مجموعة الأنساق الدالة على الصوت واللون والحركة.

وكما حملت الإشارات دلالات الأمر، فقد حملت - أيضاً - دلالات النهي، ويمكن أن نلمح ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «لددنا[42] رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه ، فأشار أن لا تلدوني، فقلت كراهية المريض للدواء ، فلما أفاق قال: لا يبقى أحد منكم لد.غير العباس، فإنه لم يشهدكم»[43].

وبنية النهي لا تختلف كثيرا عن بنية الأمر، فالنهي «طلب كف عن فعل على جهة الاستعلاء»[44]، ومن الملاحظ لدي البلاغيين «أن دخول بنية النهي إلى الأدبية يقتضي تخلصها من ملازمة الاستعلاء، وهو ما يدفع بها إلى سياقات بعيدة عن أصل المعنى لتمارس إنتاج دلالات بديلة»[45].

والسيدة عائشة فسرت إشارة الرسول صلى الله عليه وسلم ببنية النهي «لا تلدوني»، وهذه البنية تذكرنا بحديث جابر، حيث فارقت بنية الأمر الاستعلاء، كذلك نرى بنية النهي هنا تفارق الاستعلاء، ويمارس النسق غير اللغوي دوره الجمالي في إفراز دلالات الضعف والإعياء التي تعتري الرسول صلى الله عليه وسلم في أثناء مرضه.

وقد يشير النسق غير الكلامي في بعض الأحيان إلى معنى «الحذف»، ويتضح ذلك من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق، ووضع السلاح، واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه، فاخرج إليهم،

قال: فإلى أين؟ قال: ههنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم»[46].

ونلحظ في هذا النص المعتمد على الحذف عدم الوضوح الكامل ؛ لأن الوضوح الكامل - غالباً - ما يبعد الخطاب الأدبي عن كثافته[47].

وبُعْد هذا النص عن الوضوح الكامل أتاح للمتلقي أن يتدخل مباشرة بإحضار الغائب اعتمادا على السياق وقرائنه الإشارية، وقد تدخلت السيدة عائشة - بوصفها المتلقي - بإحضار الغائب، وتفسير إشارة جبريل عليه السلام إلى «بني قريظة».

ومن سياقات الحذف ما يعود «إلى المبدع واتصال حركته الذهنية بما يتحدث فيه أو مَنْ يتحدث عنه، إذ تنتابه حالتان متقابلتان، إحداهما تجعل نظرته إلى المسند إليه المحذوف قائمة على التقدير والتعظيم، والأخرى تجعلها الامتهان والتحقير، وهو ما يجعل السياق مزدوجاً في فاعليته الإنتاجية»[48].

ومن خلال سياق النص السابق يتضح أن جبريل عليه السلام لم يذكر بني قريظة ، وأشار إليهم امتهانا لهم وتحقيرا من شأنهم.

ومن المباحث التي اهتم بها البلاغيون كثيراً مبحث الإيجاز، وقد انصب اهتمامهم لتحقيق هذه البنية على الأنساق اللفظية، ويمكن أن يلعب النسق غير اللفظي دورا في خلق بنية الإيجاز. ونلمح ذلك في حديث يونس بن ميسرة قال: «خرجت مع أبي سعيد الزرقي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شراء الضحايا، قال يونس: فأشار أبو سعيد إلى كبش أدغم ليس بالمرتفع ولا بالمتضع في جسمه، فقال : اشترِ لي هذا كأنه شبهه بكبش رسول الله صلى الله عليه وسلم»[49].

وقد درس البلاغيون الرمز والإيماء والإشارة ضمن أنواع الكناية[50]. ولم يدرسوا في مبحث الإيجاز أي نسق غير لفظي، وانصب

اهتمامهم على الأنساق اللفظية فقط. لكنا نرى لمحة ذكية لابن رشيق حيث يربط الإشارة بالإيجاز على حد قوله: «والإشارة من غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة تدل على المرمى وفرط المقدرة، وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز الحاذق الماهر، وهي نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملاً، ومعناه يعيد ظاهر لفظه»[51].

والإشارة في النص السابق كانت لها قدرة بالغة على الإيجاز والاختصار، فقد اختزلت مجموعة من العبارات، هي: كبش أدغم - ليس بالمرتفع ولا المتضع في جسمه - يشبه كبش رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه الإشارة - أيضاً - خففت على المتلقي عناء البحث عن الكبش المطلوب ضمن مجموعة كثيرة من الكباش، وأسهمت في تحديد الهدف المطلوب، والاختصار في الوقت.

وفي بعض الأحيان نرى الإشارة في الحديث النبوي تؤدي دوراً في لفت الانتباه، كما في حديث أنس ابن مالك ، قال: «صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رقي المنبر، فأشار بيده قبل قبلة المسجد، ثم قال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الصلاة الجنة والنار ممثلتين في قبلة هذا الجدار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر ثلاثاً»[52].

في هذا الحديث نرى الإشارة جاءت سابقة الأنساق اللفظية، وتلك الأنساق تشير إلى أمر خطير ، فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ،الجنة والنار ماثلتين في قبلة المسجد، ومن ثم لعبت الإشارة دوراً مهماً في لفت انتباه المتلقي، وإثارة اهتمامه.

ويمكن أن يحقق النسق غير اللغوي نوعا من الالتفات في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «قال النبي صلى الله عليه وسلم: أُمرت

أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة، وأشار بيديه على أنفه واليدين والركبتين وأطراف القدمين، ولا نكفت الثياب والشعر»[53].

لقد عرف البلاغيون الالتفات بأنه «انتقال من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول»[54]، والمخالفة عندهم تتمثل في الضمائر والأعداد والزمن[55].

ويمكن أن نتوسع في هذه المخالفة لتشمل الانتقال من نسق لغوي إلى آخر غير لغوي أو العكس، ولا تتحقق المخالفة في أسلوب الالتفات إلا إذا كانت في أمر واحد، أما إذا امتدت إلى أمرين فأكثر فلا يعد الأسلوب التفاتاً.

وفي الحديث السابق تمت المخالفة في أمر واحد خاص بسبعة أعظم يسجد الإنسان عليها ، فوردت الجبهة في سياق النسق اللغوي، ثم التفت الأسلوب إلى نسق إشاري وردت من خلاله الأعظم الستة الباقية.

ونرى في هذا الالتفات إبرازاً لكلمة بعينها لأن «هناك ترتيبا معتادا يطرق الذهن لأول وهلة، وهذا الترتيب يمكن مخالفته، ولكن مجرد المخالفة ينبئ عن غرض ما، ذلك الغرض هو: إبراز كلمة من الكلمات لتوجيه التفات السامع إليها»[56].

والكلمة التي أبرزها هذا الأسلوب «الجبهة»، وهي رمز الكبرياء في الإنسان، وسجودها إقرار لعظمة الله وكبريائه.

وبجانب إبراز كلمة «الجبهة» من خلال هذا الأسلوب الالتفاتي، تتجلى ، قيمته - أيضاً - في التأثير على المتلقي على حد قول الزمخشري[57]: «إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وأكثر إيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد».

وآخر ما نقف عليه في هذا المبحث الدور التصويري للنسق غير اللغوي في الحديث النبوي، ومن ثم «نتوقف عند لون فريد من التصوير يرتبط بالطبيعة الشفاهية للحديث النبوي، حين يوظف رسول الله صلى الله عليه وسلم معالم الواقع المادي المحيط بالمتلقين أو أن سماعهم الحديث النبوي في بناء ما ينطوي عليه من تصوير مما يبلور انتقالاً مناسباً من عالم النص إلى عالم الواقع المادي من ناحية، ويكسب المعنى المسوق عبر التصوير بداهة تماثل معالم هذا الواقع من ناحية»[58].

وقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم في التصوير الإشارة والحركة والرسم. وكان لكل وسيلة من هذه الوسائل أثرها في موضوعها ، فالإشارة «إذا كانت في محلها كانت معينة على الفهم، لافتة للنظر، طاردة الشرود، مشركة في المتابعة أكثر من حاسة، فالناظر يرى الإشارة، ويسمع العبارة، ويذكر كل منهما الأخرى.

وكانت لحركته صلى الله عليه وسلم وإشارته موضع كبير في إجادة الأداء، فحركته معبرة تلفت النظر ، وتنبه الغافل وتعين على الحفظ والتذكر.

أما الرسم فإنه أسلوب تعليمي يجلو الأمر، ويوضحه أتم توضيح... وإنه لمستوى رفيع في التوجيه والإبلاغ أن يكون الرسم أداة في قوم أميين»[59].

وفي هذا المجال نرى الصورة التي اعتمدت على التشبيه والكناية وردت بكثرة في الحديث النبوي ، ولكثرة تلك الصور، يجدر بنا اختيار نماذج قليلة، حتى تتبين الفكرة.

ونبدأ الحديث عن التصوير بالإشارة والحركة، ونرجئ الحديث عن التصوير بالرسم لاحقاً. ومن الصور التشبيهية التي اعتمدت على

الإشارة، ما رواه سعد بن سهل عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئا»[60].

وكذلك ما رواه أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ، وضم أصابعه»[61].

الحديثان السابقان يبرزان علاقة التلازم بين النبي صلى الله عليه وسلم، وكافل اليتيم ، وعائل الجاريتين في الجنة، وارتبط المشبه بعنصريين لغويين حسيين ، وارتبط المشبه به بعنصرين غير لغويين حسيين. واعتماد الحديثين على التصوير بهذا الشكل يجعل المتلقي أكثر تجاوباً وتفاعلاً مع النص حيث تحوُّل الكلام من النسق المعياري إلى النسق الجمالي يجعله أكثر تأثيرا على حد قول سورل: «إن الاستعارة والتشبيه هما حالات من المبالغة»[62]. ولعله يقصد بالمبالغة الأثر الجمالي الذي يحدث إثر تحول القول من التعبير الحقيقي المعياري إلى التعبير العدولي أو الانحراف الكامن في عنصر التصوير.

والاعتماد على الإشارة كان له الأثر الفاعل في النص حيث «إن الإشارة منشط يشترك مع منشط آخر من استدعاء الصورة الذهنية»[63].

وهذه الإشارة في النصين مثلت أحد طرفي التشبيه، وقد تفاعل المشبه به مع الطرف الآخر/ المشبه بعنصريه اللغويين في استحضار صورة ذهنية لعلاقة القرب في الجنة بين النبي صلى الله عليه وسلم وكافل اليتيم وعائل الجاريتين، وكذلك انفتح النص لتخيل عالم الجنة الغيبي. ونقف على صورة تشبيهية أخرى اعتمدت على عنصر الحركة،

في حديث بريدة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل تدرون مثل هذه وهذه ؟ ورمى بحصاتين. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذاك الأمل ، وهذاك الأجل»(64).

من خلال الحديث السابق يفهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم رمى حصاتين إحداهما قريبة والأخرى بعيدة، وبالطبع القريبة تشير إلى الأجل، والبعيدة تشير إلى الأمل، ودائماً ما يكون الأمل أوسع من الأجل.

والنسق غير اللفظي في هذه الصورة التشبيهية أدخلها في منطقة المبصرات، وكذلك اعتمد طرفا التشبيه علي طرف حسي وآخر عقلي: الحصاة القريبة كالأجل والبعيدة كالأمل، وهذا أدعى إلى نفاذ الصورة إلى ذهن المتلقي، حتى يحسب حساباً للمنية التي تنتظره.

وإذا انتقلنا من الصورة التشبيهية إلى الصورة الكنائية التي تعتمد على النسق غير اللغوي وجدناها كثيرة، لكن يمكن اختيار صورتين فقط حتى لا يضيق بنا المجال.

الصورة الأولى: من حديث أُبي بن كعب قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: يا أبا المنذر أي آية من كتاب الله معك أعظم. قلت: لا إله إلا هو الحي القيوم. قال : فضرب في صدري. وقال: ليهنك العلم أبا المنذر»(65).

الصورة الثانية: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي قبل الخطبة، فرأى أنه لم يسمع النساء، فآتاهن ومعه بلال ناشراً ثوبه، فوعظهن، وأمرهن أن يتصدقن ، فجعلت المرأة تلقي، وأشار أيوب (أحد رواة الحديث) إلى أذنه وحلقه»(66).

وقبل أن نحلل الصورة الكنائية في النصين السابقين يجدر بنا أن نقف على مفهوم الكناية ودلالتها. فقد عرف البلاغيون الكناية بأنها «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز معناه حينئذ»[67].

إذاً من خلال التعريف السابق يتضح أن المعنى الحقيقي والمجازي مطروحان في السياق وقابلان للقصدية[68]. ومن هنا تسهم الكناية في إنتاج الدلالة ، وتصبح « بنية ثنائية الدلالة كثيرة اللوازم تجهد الذهن إلى درجة معينة في الوصول إلى ناتجها»[69].

وإذا عدنا إلى الحديثين السابقين وجدنا النسق غير اللغوي المعتمد على ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم صدر أُبي بن كعب كناية عن صفة الإعجاب. وفي الحديث الثاني إشارة أيوب إلى الأذن والحلق كناية عن موصوف هو الحليّ الذي تتزين به المرأة في أذنيها وجيدها.

وإن كان استهداف اللازم لا يمنع من إرادة المعنى الأصلي ، فإنما «تأتي الإضافة الحقيقية في البنية الثانية من أنها تثبت وتقرر المعنى الكنائي عن طريق تدخل العقل في استخلاص اللازم من الصياغة»[70].

وكان للسياق أثره في استخلاص اللازم من الضرب في الصدر، والإشارة إلى الأذن والحلق. ومن ثم يتبين لنا أن للأنساق غير اللغوية القدرة على إنتاج بنية الكناية مثل الأنساق اللغوية.

ونقف على نوع آخر من أنواع التصوير أطلق عليه بعض النقاد الصورة التقريرية، وعرفها بقوله: «هو نوع من أنواع الصورة الفنية تنهض برسمه مدلول الكلمات دون اللجوء إلى البيان ولا يخلو من جمال فطري»[71].

وهذه الصورة «لا تنحصر في التشابيه والاستعارات وسواها من ضروب المجاز، ولكنها كل صورة توحي بأكثر من معناها الظاهر، ولو جاءت منقولة من الواقع»[72].

ونرى الذين حللوا هذه الصورة انصب اهتمامهم على النسق اللفظي، مع أن النسق غير اللفظي يتفوق على نظيره اللفظي في هذا المجال، حيث إن الأنساق اللغوية لا تستطيع جميعها رسم هذا النوع من التصوير، في حين أن جميع الأنساق غير اللغوية ترسم الصورة التقريرية؛ ولذا نرى هذه الصورة في جميع الأحاديث التي اعتمدت على اللغة غير المنطوقة ، وقد مربنا منها كثير.

ونختار حديثين فقط لندلل بهما على الفكرة التي نرمي إليها:

الحديث الأول: عن شهر بن حوشب قال: «سمعت أسماء بنت يزيد تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ في المسجد يوما وعصبة من النساء قعود، فألوى بيده بالتسليم، وأشار عبدالحميد (أحد رواة الحديث) بيده»[73].

ولعلنا نرى النسق غير اللغوي يتآزر مع النسق اللغوي في رسم عدة صور تقريرية قوامها: فعل المرور، وفعل القعود، وتأتي الإشارة محاكية فعل المصافحة، وكذلك جاءت إشارة الراوي محاكية فعل الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن الملاحظ هنا أن إنتاج تلك الصورة المعتمدة على نسقها غير اللغوي يرجع إلى اختلاف الجنسين، والحكم الشرعي الذي يحرم مصافحة الرجل المرأة الأجنبية.

الحديث الثاني: عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم بمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق: فمنهم

من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما. قال: فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فيه»[74].

ونعاين هنا مجموعة من الأنساق اللغوية مع نسق غير لغوي رسمت صورة كلية لدنو الشمس من الخلق يوم القيامة، ثم تصور تدرج الخلق في العرق حتى تصل الصورة نهايتها فتأتي الإشارة إلى الفم محاكية إلجام العرق أسوأ الناس أعمالاً.

إنها مجموعة من الصور المتعددة، ربما تكون أكثر نجاحاً من الصور البيانية في تصوير هذا الموقف المهيب الرهيب، ونقله من عالم الغيب إلى عالم الحس والمشاهدة، ومن هنا كانت أكثر تأثيرا في المتلقي ، وأشد نفاذا إلى ذهنه وقلبه.

وكما اعتمد التصوير في الحديث النبوي على الإشارة والحركة، فقد اعتمد - أيضاً - على الرسم. ونمثل بحديثين في هذا الصدد.

الحديث الأول: عن عبد الله بن مسعود قال : «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً. وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعوا إليه ثم قرأ: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**[75] ﴾[76].

اعتمدت الصورة في الحديث السابق على تشبيهين: المشبه فيهما غير لغوي مادي، والمشبه به لغوي عقلي، ومن خلال التفاعل بين طرفي التشبيه تجسد المعنى، وظهرت أمام حدقة العين في وضوح الدعوة الإسلامية في طريقها المستقيم، والدعوات الباطلة المنحرفة في طرقها المتشعبة.

الحديث الثاني: عن عبدالله قال: «خط النبي صلى الله عليه وسلم خطا ومربعا ، وخط خطا في الوسط خارجاً منه، وخط خِططا صغارا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط فقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذي هو خارج أمله. وهذه الخطط الصغار الأعراض ، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[77].

هذه الصورة توضح اتساع الهوة بين الأجل والأمل، فالأجل قريب يحكم الخناق على الإنسان، ولكنه يحاول أن يفلت من هذا الخناق تعلقا بالأمل، ومع تعلقه بأمله يقع فريسة للأعراض، فإن أفلت من عرض افترسه آخر، حتى يحكم الموت قبضته حول عنقه، فتدركه المنية.

ونلاحظ أن المتلقي شارك في إنتاج تلك الصورة التي اعتمدت على الرسم، فالمتلقي نشأ في قوم أميين، فكانت الصورة المحسوسة أكثر مناسبة له من الصورة المجردة.

وفي النهاية عند النظر في «نص ذي بعد مضموني راق كالحديث الشريف لا ترد فيه الصور - على اختلاف طبيعتها بساطة وامتداداً - قاصرة على تحقيق تأثير جمالي وحسب ، بل ينضاف إلى إحداث هذا التأثير ترق دلالي يتبلور في رحاب التلقي تأخذ هذه الصور في تجاوزها كونها تصويرا إلى تكوينها تصورا»[78].

ومن خلال النصوص السابقة تبين لنا مدى تحقق العنصر الجمالي من خلال التصوير النبوي، وكذلك وضح لنا مقدرة الصورة النبوية في نقل المتلقي من عالم الواقع إلى عوالم متعددة من التصور والتخيل ، وهذه وسيلة من وسائل متعددة في التعبير النبوي التي تحمل المتلقي على التواصل الحميم والتجاوب مع النص.

ومن كل ما سبق فقد اتضح أن اللغة غير المنطوقة في الحديث النبوي، أسهمت بدورٍ بارزٍ في تحقيق وظائف متنوعة، ومن ثم كانت لها أهميتها في الأداء النبوي، وفي نص هو أبلغ النصوص البشرية على الإطلاق.

## الهوامش

(1) الجاحظ: البيان والتبيين ، تحقيق : عبدالسلام هارون، 79/1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2003.

(2) د. كريم زكي حسام الدين: اللغة والثقافة «دراسة أنثر ولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية»، 41، دار غريب، القاهرة، 2001.

(3) راجع : ول ديوارنت: قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، 124/1، ط3، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1968.

(4) مورجان: نقلا عن د. كريم زكي حسام الدين: الإشارات الجسمية «دراسة لغوية لظاهرة استعمال أعضاء الجسم في التواصل»، 119، دار غريب، القاهرة، 2001.

(5) راجع: حنون مبارك: دروس في السميائيات، 35، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 1987.

(6) عصام الدين أبو العلا : مدخل إلى علم العلامات في اللغة والمسرح، 51، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005.

(7) د. محمود سليمان ياقوت : القصة القصيرة وعلم الحركة الجسمية «دراسة تطبيقية» ، 215، مجلة كلية آداب طنطا، ع2، 1405 -1985.

(8) راجع: حنون مبارك: دروس في السميائيات: 75.

(9) ندريس: اللغة ، ترجمة: عبدالحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، 35، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1950.

(10) عصام الدين أبو العلا : مدخل إلى علم العلامات : 152.

(11) د. كريم زكي حسام الدين: الإشارات الجسمية : 8.

(12) د. عبدالله محمد الغذامي: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، 8، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998.

(13) د. أحمد مختار عمر: لغة بغير كلمات، 79-81، ضمن كتاب «تمام حسان رائداً لغوياً»، عالم الكتب، القاهرة، 1423 -2002.

(14) السابق : 79.

(15) النسائي : السنن الكبرى، تحقيق: عبدالغفار سليمان البنداري، وسيد كسراوي حسن، كتاب التطبيق، 402/1 ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1411، 1991.

(16) أبو داود: سنن أبي داود ، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، كتاب الصلاة، 80/1، دار الفكر، بيروت ، د.ت.

(17) البخاري : صحيح البخاري ، تحقيق : مصطفى ديب البغا ، كتاب الحج ، 583/1، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1407-1987، النسائي: السنن الكبرى، كتاب الحج، 204/1، الترمذي : سنن الترمذي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرين، كتاب الحج ، 268/2، دار إحياء التراث، بيروت ، د.ت.

(18) د. أحمد مختار عمر : لغة بغير كلمات : 80.

(19) الوسْق : مكيلة معلومة، وهو حمل بعير، وهو ستون صاعا بصاع النبي صلى الله عليه وسلم، ومقداره خمسة أرطال وثلث. اللسان: وسق.

(20) ذوْد : للقطيع من الإبل من الثلاث إلى التسع. اللسان : ذود.

(21) مسلم: صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب الزكاة، 673/2، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.

(22) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : تحقيق : السيد أحمد صقر ، 240 ، دار التراث ، القاهرة ، 1393-1973.

(23) مسلم: صحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، 1208/3.

(24) السابق: كتاب صفة القيامة والجنة : 2170/4.

(25) د. أحمد مختار عمر : لغة بغير كلمات: 80.

(26) سورة الكهف: 74 - 77.

(27) البخاري: صحيح البخاري، كتاب التفسير: 1752/4.

(28) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب العلم عن رسول الله، 39/5.

(29) د. أحمد مختار عمر : لغة بغير كلمات: 80

(30) النسائي : السنن الكبرى ، كتاب الحج، 425/2.

(31) أبو داود : سنن أبي داود ، كتاب الحج، 197/2.

(32) مسلم : صحيح مسلم ، كتاب الزكاة، 761/2.

(33) راجع : ابن كثير : السيرة النبوية، 515/2، دار المعرفة ، بيروت، 1396 – 1971.

(34) النسائي: السنن الكبرى، 1249/1.

(35) تمعك: تقلب في التراب. اللسان : معك.

(36) البخاري: صحيح البخاري، كتاب التيمم ، 129/1، مسلم: صحيح مسلم، كتاب التيمم، 280/1 أبو داود : سنن أبي داود، كتاب التيمم، 88/1، النسائي: السنن الكبرى، كتاب التيمم، 134/1.

(37) راجع: د. عبدالرحيم الكردي: السرد في الرواية المعاصرة «الرجل الذي فقد ظله نموذجاً»، 90 ، ط2 ، مكتبة الآداب، القاهرة، 2006.

(38) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجماعة والإمامة: 241/1.

(39) عبدالمتعال الصعيدي: بغية الإيضاح بتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، 46/2، مكتبة الآداب، القاهرة، 1420-2000.

(40) مسلم : صحيح مسلم، كتاب الأشربة، 1622/3.

(41) د. محمد عبدالمطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، 293، ط1، لونجمان، 1997.

(42) لددنا: لددت الرجل ألدُّه لدًّا: إذا سقيته ، واللدود ما يصب بالمسعط من السقْي والدواء في أحد شقي الفم ، فيمر على اللديد. ولديدا الفم جانباه، وفي الحديث: أنه صلى الله عليه وسلم لُدَّ في مرضه، فلما أفاق قال: لا يبقى أحد منكم إلا لُدّ فعل ذلك عقوبة لهم لأنهم لدوه بغير إذنه. اللسان: لدد.

(43) مسلم : صحيح مسلم، كتاب السلام، 1733/4.

(44) بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص، 324/2، عيسى الحلبي، القاهرة، 1937.

(45) د. محمد عبدالمطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، 297.

(46) البخاري: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير: 1389/3.

(47) راجع: د. محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، 217.

(48) السابق: 219.

(49) ابن ماجة: سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، كتاب الأضاحي، 1046/2، دار الفكر ، بيروت ، د.ت.

(50) راجع : عبدالمتعال الصعيدي: بغية الإيضاح، 162/3.

(51) ابن رشيق : العمدة ، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، 138/1، ط3، المكتبة التجارية، القاهرة.

(52) البخاري : صحيح البخاري ، كتاب صفة الصلاة، 261/1، مسلم : صحيح مسلم ، كتاب الفضائل، 1832/4، النسائي: السنن الكبرى، كتاب التفسير، 338/6.

(53) البخاري: صحيح البخاري ، كتاب صفة الصلاة، 280/1، مسلم: صحيح مسلم، كتاب الصلاة، 354/1، النسائي : السنن الكبرى ، كتاب الصلاة، 231/1.

(54) ابن الأثير: المثل الثائر، تحقيق: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، 170/2، مكتبة نهضة مصر، 1960.

(55) راجع: د. محمد عبدالمطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى ، 392.

(56) فندريس: اللغة، 188.

(57) عبدالمتعال الصعيدي: بغية الإيضاح، 118/1.

(58) د. طارق سعد شلبي: دراسات في لغة النص، 189، زهراء المدائن للتوزيع والنشر، القاهرة، 2000.

(59) د. محمد لطفي الصباغ: التصوير الفني في الحديث النبوي، 525، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت ، 1409-1988.

(60) البخاري: صحيح البخاري ، كتاب الطلاق ، 2032/5.

(61) مسلم: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، 2027/4.

(62) يوسف مسلم أبو العدوس: النظرية الاستبدالية للاستعارة، 55، حوليات كلية الآداب جامعة اليرموك، حولية 11، 1410 – 1989.

(63) بيير جيرو: علم الدلالة، ترجمة: منذر عياشي، 28، ط2، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، 1988.

(64) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب الأمثال عن رسول الله، 152/5.

(65) مسلم: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، 556/1.

(66) البخاري: صحيح البخاري، كتاب العلم، 49/1.

(67) عبدالمتعال الصعيدي: بغية الإيضاح، 15/1.

(68) راجع: د. محمد عبدالمطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، 187.

(69) د. محمد عبدالمطلب: قراءة لغوية في مسرحية البحر لأنس داود، 137، مجلة فصول ، مج1، ع3 ،4، القاهرة ، يناير 1992.

(70) د. محمد عبد المطلب : البلاغة العربية قراءة أخرى، 188.

(71) بدر أحمد ضيف : الصورة الفنية في شعر المعتمد بن عباد، 62، مكتبة التركي، طنطا، 1997.

(72) د. روز غريب: تمهيد في النقد الأدبي، 38، دار المكشوف، بيروت، د. ت.

(73) الترمذي: سنن الترمذي، كتاب الاستئذان ، 58/5.

(74) مسلم : صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها : 2196/4.

(75) الأنعام : 153.

(76) الحاكم: المستدرك، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، 261/2، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1411 ، 1991.

(77) البخاري : صحيح البخاري، كتاب الرقاق، 2359/5.

(78) د. طارق سعد شلبي: دراسات في لغة النص، 185.